الواحد بلسان الآخر، أو عينه بعينه، أو فكره بفكره! وقد تنقلب أوضاعهم في المنام رأساً على عقب، فيرى المريض نفسه صحيحاً والصحيح مريضاً، ويصبح السيد عبداً والعبد سيّداً، ويغتني الفقير ويفتقر الغني. كل ذلك وهم، في الظاهر، عين الجماعة الذين كانوا منذ لحظات قليلات يتجاذبون أطراف الحديث شاعرين أدقّ الشعور بالفوارق الجسديّة والفكريّة والاجتماعيّة فيما بينهم. لقد عبث النوم بأوجاعهم وأوضاعهم وبمشاعرهم وأفكارهم. فهم هم. ولكنهم غير ما هم. لعمري إنّه السحر بعينه. والسحر الذي لا يدانيه أي سحر بشري.

إن يكن النوم من أبرع المخدّرات وأدهاها في صيدلية الطبيعة، فأبرعها وأدهاها على الإطلاق هو الموت. ووجه الشبه بين النوم والموت قريب إلى حدّ أن يحملنا على الجزم بأنّهما من عنصر واحد. وما الفرق إلّا في مدى التخدير من حيث طوله وقصره. فنحن إذ نتخدّر بالنوم نعود فنصحو منه بعد ساعات على نهار جديد. وما أدرانا أنّنا إذ نتخدّر بالموت لا نعود فنصحو منه بعد سنين على حياة جديدة؟ ولعلّ من قال:

النوم موتٌ قصير والموت نومٌ طويل